# الهوية البصرية من سيمياء الكتابة إلى سيمياء الفضاء المعماري

**الدكتور عبد الرزاق بن دحمان**

**كلية الأداب و اللغات قسم الأدب العربي**

**جامعة محمد خيذر بسكرة**

شكلت الهوية البصرية حضورا متميزا في مجال الدراسات الأدبية و الإجتماعية، فما تزال الكتابة على مختلف أشكالها و طرائق أنواعها تطرح أشكال الهوية كفكرة أو هاجس يلاحق مسارات الكتابة الجمالية عبر المراحل و العصور.

ولاشك أن إنتقال الدراسات النقدية من حيز الكتابة التوثيقية المعتمدة على تدوين الملفوض إلى ميدان الفنون التجسيمية المشتغلةعلى أفق التنظيم اللغوي و التركيب الإنزياحي و أسلوبي الهندسي لمختلف الأشكال و التصميمات المعمارية المتباينة الوجوه و الدلالات، و بهذا إنتقلت الكتابة في بعدها السيميائي من فضاء المعرفة الادبية إلى فضاء الهندسة المعمارية و هذا بفضل توسع الدرس السيميائي و رحلته إلى أعماق الثقافة الإنسانية ليغدو المشهد المعرفي للهوية مشهدا حركيا تثيره القراءات السيميائية للواقع المعيشي و المتمثل في الأماكن التي يراودها الإنسان و تعايش معها و أماكن شكلت تراثه و ثقافته و هويته كأشكال و هندسة البناءات من مساكن و حدائق و دور ترفيه و مساحات خضراء و رموز و صور تشكيلية تدخل في بناء المحيط الإجتماعي للفرد و الجماعات، ومن هذا المنحى تحاول هذه

الدراسة المتواضعة ملامسة روح اتناسق و التناغم بين مشهد الكتابة و مشهد الهندسة المعمارية و هذا من خلال صناعة الفضاء المندس وراء المعنى و خالقي لتراتبية التفسير و التاويل و هذا لن يتجسد كفكرة إلا إذا أامسكنا على مضامين الفكر السيميائي ، هذا الفكر النقدي المعاصر الذي أصبح مدارا سيميائيا واسع التمثيل و الحضور في إستنطاق الكثير من المعارف و القيم الثقافية لأن السيمياء هي العلم الذي يدرس العلامة اللغوية و غير اللغوية و التي بفضلها يتم التواصل بين البشر (1).

تنقلب الهوية على عدة توجهات و مناحي ذلك أن البحث في موضوع الهوية تصنعه طبيعة التمثيل الجمالي لعالم الأفكار و التصورات و المعتقدات، فالكتابة في حد ذاتها لها هويتها وللفضاء هويته وللمبدع هويته أيضا، فالمعرفة لا معنى لها في الحياة إلا إذا إرادة معرفة أو إعطاء معرفة أي بتأسيس فاعلية الإنسان كإستجداء تلك هي المراهنة المزدوجة لدراسات الدلالات التي تريد من نفسها معرفة حول هذه المعرفة الخاصة بالإنسان....والتي يشكل الإنسان بالنسبة لها و في الوقت نفسه المنتج و المفسر و الفاعل و المفعول المحرك و الضحية الاولى (2)، وبما أن منظومة المنهج السيميائي منظومة متشعبة الروئ و الإتجاهات فكل مدرسة لها إرتكازات فلسفية و معرفية فنظروا بها إلى الكون و الأشياء و لهذا وجدنا في فلسفة (ساندرس بيرس) الإتجاه الأنسب في مثل هذه الدراسات و المقاربات، و هي فلسفة

ترتكز على الظاهرية ذات المنحى الواقعي البراغماتي، و هو بذلك يوسع من مفهوم العلامة لتشمل أنظمة معرفية تبليغية أخرى ذات علاقة بحياة الإنسان ولهذا يعد منظور بيرس الأنسب و الأصلح لدراسة الخطابات البصرية (3).

ومن هذا المنحى تكشف السيمياء عن مجموع المعارف الإنسانية التي تكرسها الذات المبددعة.

**العلامة و صناعة الفضاء الهندسي**

من الوجهة الفلسفية الفاحصة لأحوال الإنسان و علاقاته بمحيطه و فضائه إذ يشتغل و يتحرك الذهن البشري وفق الشكل المكاني أو الحيز الذي يعايشه بمعنى أن أحوال التواجد المكاني هو المسؤول عن طبيعة التفكير و التصرف السلوكي، فالإحساس بالمكان و تشكيلاته المختلفة هو الذي يحول تجاربنا إلى مجموعة التصورات و الأفكارالتي تمنحنا المعنى لكل ما يعترضنا من عوالم مرئية وغير مرئية، ففي كل لحظة تتشكل هويتنا البصرية من خلال التصميم الهندسي الذي يحيط بنا، فالظاهر هو المجموع الجماعي الحاضر في الذهن بأنه صفة وبأية طريقة دون الإهتمام بتطابقه أو عدم تطابقه مع شيئ وقعي و إنه المعطى المباشر و الفعلي(4)، يعكس هذا الطرح الفلسفي إشكالية العلامة السيميائية ليس فقط في بعدها الرمزي ولكن كإنجاز ثقافي يعيد تمثيل العمق الإنساني المتمثل في بناءات و إنجازات الواقع، إذ نفهم من هذا القصد رحلة المعنى من الحرف إلى فضاء التشكيل

المعماري، فالمنجز معماريا هو في الحقيقة تلك اللغة المنتقلة من عالم التصورات إلى عالم التجسيد الواقعي، فسيمياء قراءة النص الشعري الجاهلي خلقت لدى القارئ العربي معيارا عموديا "رأسيا يكاد يكون نمطا بنائيا له تأثير عميق في صناعة المعنى إنطلاقا من الفضاء المكاني الذي تشكلت منه القصيدة الشعرية في العصر الجاهلي، بمعنى أننا دائما نخلق المعنى من خلال الفضاء لبناء النص الشعري ، ومن هنا يمكن النظر إلى السلوك السيميائي بإعتباره حالة ثقافية فالعين مثلا تبصر وستظل تبصر إلى مالا نهاية و لكنها لا تنتج سلوكا رمزيا(5).

فالرؤية البصرية من الوجهة الهندسية تخلقها الكلمات المناسبة لفحص المعنى فالإنسان موجود في فضاء معين فهو مطالب بإستخلاص شيئ ما من فضاء معرفي أخر يجابهه فوجوده الأول يطرح في المقابل تشكيل الهوية الثابتة في المكان هذه الهوية هي أداته التي يقرأ بها الأخرأو المجابه، فالشكل الهندسي يثير فكرة المرجع والتي تتحول بدورها سيميائيا إلى رموز و أيقونات و إشارات لا تخرج عن معتقداته وموروثه الثقافي و الإجتماعي، فسيميائيا أنا لا أستوعب المشهد الخارجي كتصميم هندسي إلا من خلال ما أحمله من صور حول هذا التصميم، فإلتقاط العالم الخارجي و تحويله إلى كيانات تسكن الذهن في شكل مضامين لسانية ليست عملية بسيطة إذ أنه يشير إلى سلسلة من العمليات المنطقية غير المرئية من خلال التجربة العادية(6).

قلنا منذ قليل إن التصميم الخارجي للأشياء يثير في الذهن جدلية التفسير و التأويل، فالمنظومة الثقافية لكل بناء و تجسيد معماري لها دلالات سيميائية تعكس الروح الداخلية لقيمة الإنسان و هويته المندسة من وراء الرموز و الكلمات، فالتعامل مع المظهر الخارجي لا يخرج عن ألفة البصر و تعودنا بطريقة متواصلة على التكيف و إنسجام مع هذا المظهر، فالواقعي هو القابل للتسمية فالكلمات تلتصق بالأشياء لتكشف عن جوهرها وتعد الأشياء ضمانة على قوة الكلمات(7)، وبما أن علم المرئيات أو ما تراه العين يشكل علامات، كون كل ما تدركه العين هو علامات لا موضوعات معزولة، والعالم تسكنه العلامات وليس خزانا للأشياء(8).

فمساحة المنظورات والمضمرات هي التي تأسس القراءة السيميائية الجادة، فالفراغ هو المرجع الوحيد في تفسير و تأويل الشكل الهندسي فالذي يشغل حيزا مكانيا هو في حقيقة الأمر يستمد معناه و مغزاه من مجاورته الفراغ الذي ملأ هذا الشيئ ...هكذا تبى فلسفة المكان الذي يعد الإنسان جزءا ثابتا منه، فالمعنى إذن يتقاسمه الفضاء العام لمحتوى الشيئ فالبناية المزخرفة تشتغل سيميائيا على محور الفضاء التي توجد عليه والحيز المكاني الذي تشغله لينطلق ذهن القارئ من تأويل معنى المكان إنطلاقا من الفراغ الذي أصبح مرجعا في قراءة هذا المشهد قصد إستخلاص المعنى .

**صناعة المعنى/هندسة التأويل**

تتفاعل الهوية البصرية مع الشكل الهندسي بطريقة لا تبدوا سهلة في الكثير من الأحوال، فالذات لها قدرة خارقة على تشكيل معنى الوجود، ذلك أن الإنسان كما يقول العالم العربي (إبن سينا) قد أوتي قدرة حسية ترتسم فيها الأمور الخارجية إرتساما ثابتا، فالأشكال ذات العمق الثقافي تدرك عن حالات تنتقل فيها أحوال البصر من مرحلة قراءة الموجود و الأشياء قراءة ربما تكون تلفظية ثم تتموضع هذه الأشكال حسب درجة التفاعل فبقدر ما يقترب شكل ما من نوع ذي عمق ثقافي بقدر ما يكون التدليل التشكيلي و المتولد من عناصره المحددة مرتبط بالمدلول الذي أودعته الثقافة هذا النوع(9)، وعليه فصناعة المعنى من وجهة نظر سيمياء التواصل تنطلق من مبدأ التأثير المتبادل بين الوجود الثابت للشكل الهندسي و الوجود الفعلي للإنسان، فإيمان الأشخاص بسلامة العلاقة بين الدوال و المدلولات هو الذي يمنح الشرعية التداولية داخل المحيط الإجتماعي بمعنى أن التصميم الهندسي للأشكال الخارجية تاوله المقاربة السيميائية ضمن سلسلة النزعة التداولية المعتمدة على مبدأ التواصل و التبليغ و ما يثيره الموقف من قدرات إستعارية مجازية تجعل القارئ أو المشاهد في مجابهة فضاءات إبستمولوجية تكون قادرة على ضخ المعنى في الشكل أو البناء و جعله يتناغم مع الحالة الوجدانية و الإجتماعية للفرد، وبما أن الكلمة هي الوحدة الأساسية في اللغة المنطوقة، فحين ننظر إلى العمارة على أنها لغة الفضاء المكاني أي أن عناصرها تعمل كالكلمات بالتالي تمتلك تعاريف عمومية ذات مفاهيم

شائعة.....كما يمكن للكلمة أن تمتلك عدة معان يمكن كذلك للكلمات المعمارية أن تغير معانيها عند تطبيقها في سياقات مختلفة، فالصراع القائم بين السقف التقليدي المائل و السقف المستوي يظهر التوترات المصاحبة لفهم الكلمات المعمارية التي تعبر عن الأمان و الملجأ(11).

من هذا التصور السيميائي نقول إن المباني و التصورات الهندسية لابد أن تقرأ كرسائل دلالية تنجز ضمن سياقات و أنساق ثقافية تعكس طبيعة التفكير و نمط العيش، فكل نسق يشتمل على مجموعة من القواعد وهذه القواعد تتحدد من خلال خصائصها الذاتية و تتحدد سلبا من خلال إحالتها على ما ليس هي (12)، فالعملية السيميولوجية من هذا الباب هي وحدها التي تجابه جماليات الهندسة المعمارية إذ تشكل التصميمات و المواقع تحديا خاصا للسيميولوجية و هذا نظرا لفلسفة التعقيد المنوطة بحركة التصميم و التشييد العمراني، فحين ينتقل الورق في رحلة تصادم و صراع مع الحجر تنصهر العملية السيميولوجية ضمن سلسلة من الصراعات و الإكراهات، إذ تظهر فيها الذات باحثة عبر مسارات شاقة عن مأوى تسد به الفراغ وهذا هو الملمح الجوهري لحقيقة الوجود الإنساني فرغم كثافة المشاهد المكانية إلا أن هيمنة الفراغ لا تزال في إستحواذ دائم على الإنسان، وقد أشار الفيلسوف "جورج بيرك" في كتابه (فضاءات) إلى فلسفة الفراغ مشيرا إلى دلائلية المساحات الفارغة و التي عليها....على حد تعبيره (أمارس حضوري وجودي أكتب أاسكن ورقتي

أحاصرها و أتخطاها) وبهذا تطرح السيميائيات المعاصرة إشكالية علاقتنا بالأمكنة و ما يجب أن يقوم به الأفراد و طريقة إحساسهم بها فدلالة الأجسام و الأشكال المعمارية تترك لدينا تداعيات كثيرة توقض في النفس حالات وجدانية تصنع المعنى و تتجاوزه *، و بلغة السيمياء لا يمكن للشكل الهندسي أن يمنح المعنى النهائي للفكرة أو الشيئ فكل تصميم من مسكن أو دور أو تمثال تذكاري هو في عمقه رحلة لا نهائية لمعاني أخرى تتجاوز هذا المشهد الخارجي و هذا ما يمكن تسميته (باليوتوبيا المضادة) (جورج أورويل اليوتوبيا المضادة 1984) ، و إنطلاقا من هذا المفهوم تتشكل مختلف أنواع الخطوط و الالوان و الزخارف و الأحجام و معايير الطول و العرض لتكون فضاءات متميزة لخلق المعنى الذي يتواصل معه الإنسان و لا شيئ أدل على ذلك أن الإنتقال من المدن إلى البوادي ومن السهول إلى الجبال و من الأحياء الراقية إلى مدن الصفيح يؤدي إلى إستشراف تصور جديد للإيماءات و الحركات ، فإذا كان الفضاء يتشكل في ذاته كبنية دالة داخل دائرة الفعل الإبلاغي أي بصفته فضاءا إنسانيا فإنه يقوم بتأسيس دلالة الأشياء التي تتحرك داخله و من ضمنها حركات الإنسان و أفعاله سواء كانت هذه الحركات مصاحبة للفعل اللغوي أو كانت نصا إيمائيا مكتفيا بنفسه، وتأسيسا على هذا فإن الإيماءة تتشكل وفق القوانين التي تجعل الكون هندسة فضائية تخفي في ثناياها الأشكال الثقافية المالكة لمفاتيح الإنتاج و التأويل (13).

فالهندسة المعمارية قد خلقت فضاءات جديدة لفعل الكتابة فمنظر الزخرفة و البنايات هي فضاءات رحبة تشكل أنظمة للعلامات تشتغل عليها القراءات السيميائية و التأويلية، فمنذ زمن غير بعيد عقد الكاتب الروائي الفرنسي (فيكتور هيغو) فصلا عميقا عنوانه (هذا يقتل ذاك) من روايته المشهورة (نوتر دام دو باري) (1831) تحدث في هذه المقدمة عن علاقة الكتابة بالفن المعماري و الصراع القائم بين الحجر و الورق وكيف نشأت علاقات التضاد و التناظر بين الكلمات و الأشياء، فميلاد المبطبعة الحديثة و أشكال التصميمات الهندسية غيبت فعل الكتابة لتنتقل إلى عوالم واقعية قادرة على تمثيل روح الإنسان مع عصره و بيئته تدل هذه المقولات على عمق التصور العمراني وقدرته على توليد و تشكيل دلالات الهوية، وفي مقابل هذا ذهب المفكر المعماري الفرنسي المشهور (لوكر بزيه) إلى تصور معاصر لفن العمارة الحديثة مستعينا لذلك جماليات الكتابة الأدبيةو ما تحمله من أنظمة سيميائية و رموز بإمكانها أن تجعل فن العمارة فنا كبقية الفنون و الأجناس الأدبية.

ومن هذا المنطلق يظل أشكال الهوية هدفا يرغب في تحقيقه الكثير من الفنانين المعماريين كون التشييد المعماري يعبر عن علاقة جدلية بين الشكل و المعنى ولاشك هذه العلاقة تتحول مع مرور الزمن إلى تساؤلات تتحول معها أنظمة العلامات لتدخل في صراع مع التناقضات الدلالية*، ففي كثير من الحالات و المواقف يتشكل الوعي البصري من عمق المشهد الذي يوحي به الفضاء فتتكون

على مستوى المخيلة مجرة من المعاني و الدلالات تصفها الحالة الوجدانية للإنسانو الفضاء الذي يوجد فيه ثم الفضاء الخاص و المتمثل في هيئة المكان أو البناء و هنا، تبدأ عملية التبليغ و التواصل و يبدأ معها الوعي في رحلة تثبيت عنصر الهوية،و هذا ما يجعلنا نفهم عن طريق السيمولوجيا حقائق النقوش و المنحوتات و أشكال الكتابات القديمة على أنها علامات تعكس فضاءات عمرانية ذات بعد حضاري و ثقافي تدل في أعماقها على طرق العيش و التفكير لدى الأفراد و الجماعات، ومن جوانب أخرى فإن الهوية البصرية تأخذ موقعها الخاص ضمن حدود المكان فيكتسي الذهن طابعا متميزا لا يخرج عن الفضاء الموجود فيه كما هو الحال في الأعمال السردية الحديثة التي حولت الهندسة المكانية و التصميمات العمرانية إلى أنظمة علاماتية تمنح شخصيات الروائية معاني ودلائل بإمكانها أن تحل محل اللغة الحوارية المنطوقة فتصبح الأمكنة قادرة على الكلام والبوح بما لم تتفوه به الشخصيات وهذه إشارة سيميائية تعالج رحلة الأمكنة وفنون العمارة إلى النصوص السردية فعلى سبيل المثال شخصية البطل الروائي (بولرواح) في رواية الزلزال للمرحوم ( الطاهر وطار) هي شخصية تحركها المعالم السيميائية للأمكنة المنتشرة في الرواية من أزقة و هو شوارع و جسور و منازل و دكاكين و المشهد العام لمدينة قسنطينة فكل هذه المعالم المعمارية في منظمومة الخطاب السيميائي هي فضاءات لها القدرة على تأويل المشهد السردي و منحه دلائل و معاني تدخل

في صميم الفهم و التأويل، وعليه التشكيل المكاني بهذا الفهم يأخذ معناه من كتلة المشاعر و الأحاسيس التي يضفيها الفرد على هذا المكان.

فالهوية البصرية التي تصنعها مواقف الوجود هي التي تشكل وعينا الدائم ، فكل تشييد رمزي يجعلنا دوما ننطلق منه لنشيد الفراغ المكاني الذي نعاني منه و نطلبه على مر الأزمنة و المراحل و هكذا هو حال الفضاء السيميائي الذي يشتغل على ملامسة ذلك الفراغ الرهيب بين هندسة ممكنة في الذهن و هندسة متحققة في الواقع.

# هوامش الدراسة

1-رابح بومعزة: تقنية تحليل البنية العميقة لنص الأدبي في ضوء المنهج السيميائي ، اعمال الملتقى السيمياء و النص الأدبي أفريل 2004، ص 382.

2- أن إينو : مراهنات – دراسة الدلالات اللغوية ت ر: أوريت تبيت. خليل أحمد ط1 دمشق، 1981، ص31

3- بشير إبرير: بلاغة الصورة و فاعلية التأثير في الخطاب الإشهاري
اعمال الملتقى السيمياء و النص الأدبي 2003، ص 69.

4- سعيد بنكراد: السيميائيات و التأويل ، ط1، 2005 الدار البيضاء ص 49.

5- سعيد بكراد: السيميائيات مفاهيمها و تطبيقاتها، منشورات الإختلاف-ضفاف، ط1 2005 ص29.

6- المرجع نفسه: ص 27.

7-Akibidi vurga discours recis seill 1989 page 38.

8- سعيد بنكراد: السيميائيات مفاهيمها و تطبيقاتها ص 85.

*ينظر هذه الفكرة كتاب شعرية الفضاء ، حسين نجمي بيروت، ط1، 200 ص 40

9-سعيد بنكراد: السيميائيات مفاهيمها و تطبيقاتها ص 104.

10- د/ محمد فليح الجبوري :الإتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث ط1، 2013، منشورات الإختلاف ص 35.

11- موقع الإنترنت (بتصرف)

12-ينظر grimas semiiologe 1970 paris p 141

13- سعيد بنكراد: السيميائيات مفاهيمها و تطبيقاتها ص144.

14- ينظر (غاستون باشلار) جماليات المكان ،تر غالب هلسا ط5 2000، ص35